التفكير في اللغة

«**(فَكَرَ)** في الأمر ـ فَكْراً: أعمل عقله فيه ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى المجهول.

(أَفْكَرَ) في الأمر. فَكّر فيه ـ فهو مفكر.

(فَكْرَ) في الأمر. مبالغة في فكّر، وهو أشيع في الاستعمال من فكَر. و ـ في المشكلة أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها. فهو مفكِّر. و ـ فلاناً بالأمر: أخطره بباله.

(افتكر) تذكر. و ـ في الأمر: أعمل عقله فيه.

(التفكير) إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها.

(الفكر) إعمال العقل في العلوم للوصول إلى معرفة مجهولة. ويقال لي في الأمر فكر: نظر ورويه. . .

(الفكرة) الصورة الذهنية لأمر ما والجمع: فكر»[1].

«الفِكر» بالكسر ويفتح: إعمال النظر في الشيء، كالفكرة والفكري. بكسرهما. والجمع أفكار. فَكَرَ فيه وأفْكَرَ وفَكّرَ وتَفكّر. وهو فِكِّيرٌ: كثير الفكر»[2].

---

(١) المعجم الوسيط مادة فكر (جـ ٢ صـ ٦٩٨).

(٢) القاموس المحيط مادة فكر (صـ ٥٨٨).

فالتفكير إذن عملية من عمليات العقل العليا، ذلك أن المفكر يستحضر في ذهنه الصورة الكلية للموضوع أو القضية المقصودة بالبحث والتحليل، كمرحلة أولية لتحديد الإطار العام للقضية موضوع التفكير، ثم يعيد النظر في هذا الإطار الشامل، تمهيداً لتحديد الجزئيات المندرجة تحته، ثم يأخذ طريقه لجمع المعلومات ذات الصلة بالموضوع، مبتدئاً بالظواهر الحسية والمعلومات القديمة ذات الصلة المباشرة بالموضوع أو المعلومات القريبة أو المشابهة له في علله أو بعضها، ثم ينظرها جميعاً بمستوى أعمق من التفكير لينفذ من خلاله إلى معلوم أو معلومات جديدة تُدرك بالعقل ليميز موضوع القضية وليظهرها في شكل واضح أو نهائي، ولقد استخدم القرآن الكريم هذا المستوى من التفكير في معرض الإستدلال على ألوهية الله سبحانه ووحدانيته عز وجل، وذلك في مناظرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه.

معنى التفكير عند الغزالي:

عرفه الإمام أبو حامد في الإحياء بقوله: «التفكير: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (جـ ٤ صـ ٣٦٣).

التفكير في القرآن الكريم

تكرر ورود مادة (فَكّرَ) المضعف ماضيه ومضارعه في نحو تسع عشرة آية[1].

فجاء صيغة (فَكّر) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إنه فَكَّر وقدر﴾[2]

نزلت الآية في الوليد بن المغيرة إذ سمع آيات من القرآن الكريم من رسول الله ﷺ فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً فيعطوكه. فإنك أتيت محمداً ﷺ لتصيب مما عنده. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له، وإنك كاره له. قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قولاً، قال: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال ما هو إلا سحر

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة فكر (جـ ٢ صـ ١٦٢) مجمع اللغة العربية.

(٢) سورة المدثر آية: (١٨).

يؤثره فعجبوا بذلك[1].

هذا نوع من التفكير المنحرف الضال المضل، حيث عمد صاحبه إلى إعمال العقل بصورة مقلوبة، فالقضية المتنازع عليها ـ وهي أن القرآن كتاب الله ـ قد وضحت له في أتم صورة وعلى أكمل وجه، ولم يعد باقياً إلا أن يشهد مع المؤمنين أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، لكن أبا جهل قد تمكن من تفجير دواعي الشر والكفر في نفس الوليد بن المغيرة، فكان ذلك السبب المباشر الذي دفعه إلى التفكير بصورة مقلوبة، جعلته يقول في الحق المبين، ما هو إلا سحر يؤثر.

إن اثبات القرآن الكريم لهذا النوع من التفكير الخاطىء، وأعمال العقل بصورة مقلوبة عند التعرض لنظر القضايا الواضحة وحججها الظاهرة الدامغة، ليؤكد تأثر موضوعات التفكير بميول الفرد واتجاهاته النفسية، وإن في إثباته له أيضاً التحذير من هذا الإتجاه المنحرف في أي قضية من القضايا، فقال تعالى متوعداً ومنذراً:

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ *﴾[2].

وجاءت صيغة (**تتفكرون**) في نحو ثلاث مرات. منها:

قال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ

---

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي (جـ ٣ صـ ٢٠١).
(٢) سورة المدثر الآيات: (١٩، ٣٠).

وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

تشتمل الآية على إدراكين، أما الأول فإدراك حال، وأما الثاني فإدراك مئال وهما عبارة عن مقدمتين تنشأ عنهما نتيجة هي موضوع التفكير المنصوص عليه في ختام الآية.

فموضوع الإدراك الأول حسي، متمثل في مشاهدة الجنة على حالتها الأولى، فإذا ظلالها وارفة وإذا أشجارها كثيرة الثمر متنوعة الأنواع والطعوم، وإذا الأنهار تجري من خلالها بلا كد وكدح ومشقة.

وموضوع الإدراك الثاني حسي أيضاً. يتمثل في مشاهدة هذه الجنة وقد تغير حالها وتبدلت أوضاعها، حيث أصابها إعصار شديد فيه نار فأحرق كل ما فيها من مظاهر الحياة والنماء والبهجة والسرور، إن استحضار الحالين هما موضوع التفكير.

«كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما تضمنته من العبر وتعملوا بموجبها، أو لعلكم تعملون أفكاركم فيما يفنى ويضمحل من الدنيا وفيما هو باقٍ لكم في الآخرة فتزهدوا في الدنيا وتنفقوا مما آتاكم الله تعالى منها وترغبون في الآخرة ولا تفعلوا ما يحزنكم فيها»[2].

روى الإمام البخاري بسنده عن عبيد بن عمير قال: «قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: قل يا بن أخي ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس

---

(١) سورة البقرة آية: (٢٦٦).

(٢) روح المعاني (جـ ٣ صـ ٣٨).

لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[1].

وجاءت صيغة (يتفكروا) في نحو مرتين. منها

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أَنْفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُم إِلاَّ بِالْحَقِ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[2].

تدعو الآية السابقة البشرية جمعاء إلى النظر وإعمال العقل للتفكير في أنفسهم وفيما خلق الله سبحانه في الكون من كائنات وموجودات، وتحث الآية على نبذ الغفلة وهجر البلادة التي تقترب بالإنسان إلى درجة الحيوان، وهو المخلوق المميز في جملة كائنات الوجود، فإذا استخدموا عقولهم فتفكروا في أنفسهم وما تحويه طبائعهم. «نكشف لهم بعض أسرار خلقهم التي تشهد بوحدانية الله عز وجل وعظيم قدرته وبالغ حكمته، فإذا ما نظروا إلى السموات والأرض ومن فيهن وتابعوا النظرة بالنظرة لعلموا أنها محكومة بناموس واحد يضبط حركتها، فالأرض تسير في فلكها لا تتعداه والشمس والقمر كل يجري في فلكه لا يغادره قيد شعرة والليل والنهار يطلب أحدهما صاحبه حثيثاً ولا يتباطىء أحدهما في طلب صاحبه وهكذا كل الكائنات مسخرة لتؤدي الوظيفة التي خلقها الله لها حتى اليوم الموعود، يوم يقوم الناس لرب العالمين فيحاسب كلا بما عمل ماظهر منه وما استتر.

---

(١) فتح الباري. كتاب التفسير ـ سورة البقرة ـ باب ٤٧«أيود أحدكم أن تكون له جنة».

(٢) سورة الروم آية: (٨).

«إن من مقتضيات هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة، يتم فيها الجزاء على العمل، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة. وفق الحكمة المدبرة، وكل أمر يجيء في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر، وإذا لم يعلم البشر متى تقوم الساعة، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ولكن تأجيلها يغري الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ويخدعهم. . .»[1].

مستويات التفكير:

التفكير عملية عقلية تبدأ بواكيرها في مرحلة الطفولة وتستمر في النمو والترقي حيث يتركز التفكير في مرحلة الصبا على الإستقراء وهو الإنتقال من الجزئي إلى الكلي فيبحث الحقائق والمفهومات الجزئية للموضوع بالحدث والمشاهدة محاولاً إكتشاف الأشياء والتعرف عليها بطريق التدرج من الجزء إلى الكل[2].

ولم يجد لها الجواب الكافي أو التعريف الوافي من بيئته التعليمية أو الثقافية. لهذا فإن ملكة التفكير في مرحلة المراهقة لا تمل البحث والنظر حتى تستبين أطراف موضوع التفكير أملاً في الوصول إلى حقيقته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولا يثنيها عن مسلكها جفاف البحث وطول المحاولة.

إن تقدم الحياة وتطورها ينشأ عنه أهداف إنسانية جديدة تفرضها

---

(١) في ظلال القرآن (جـ ٥ صـ ٢٧٦٠).

(٢) «يبدأ التفكير المجرد بمظاهره الأولية في أواخر الفترة السابقة (٧ ـ ٨) ويستمر التفكير المجرد ينمو فيستطيع طفل هذه الفترة إدراك حب الله وحب الوالدين وحب الوطن، ويستطيع إلى حد ما أن يضع تعريفاً قريباً من الصحة للكلمات المجردة مثل العطف والشجاعة والإنتقام والغيرة والإكرام. . . الخ» علم النفس التكويني (صـ ١٧٢) د/ عبد الحميد الهاشمي.

الظروف الحياتية في كل عصر ومصر، وهذه الأهداف إما أن تكون واضحة أو غامضة.

فإن كانت الثانية فإنها تتطلب من المراهق بذل جهد عقلي حتى تتضح أمامه الأهداف ويتمكن من تحديدها، وكثيراً ما يجد المراهق الطريق غير معبد لتحقيق أهدافه، كما قد يجهل الطريق الموصل لأهدافه، أو أن تحول دون ذلك عقبات.

فهو في الحالة الأولى يحتاج لأن يتبع خطوات جادة في تفكيره إلى الحل الصحيح الذي لا يتعارض مع أحكام ومبادىء بيئته الإجتماعية، وفي الحالة الثانية ينظر إلى نوع العقبات، فقد يكون مرجعها ذات الفرد، أو طبيعة الهدف، أو البيئة الإجتماعية، وكل ذل يتطلب من المراهق التفكير في الوسائل الطبيعية التي تحقق التلاؤم والتناسب بين الفرد وأهدافه وبيئته الإجتماعية، وفيما يلي إشارة سريعة إلى مراحل التفكير.

١ ـ الشعور بوجود مسألة أو مشكلة:

يبدأ النشاط العقلي بالتفكير عندما يواجه المراهق مسألة أو قضية أو تعترضه مشكلة تؤثر في حياته، فيجد في نفسه ميلاً قوياً لإيجاد حل مقنع ومرضٍ، يخفف توتره، أو يستطيع بواسطته أن يحقق هدفه، فيقوم بوجوه من النشاط الفكري لمعالجة ما يواجهه من مسائل ومشكلات.

٢ ـ تحديد موضوع التفكير:

تحديد موضوع التفكير يوفر الجهد والوقت ويعطي نتائج صحيحة مع سلامة التفكير وصلاحية مناهجه، ذلك أن مسائل الحياة الإجتماعية وقضاياها ومشكلاتها تتداخل وتتلاقى أحياناً، وإذا لم يتمكن المراهق بواسطة التفكير من الفصل الدقيق بين موضوع وآخر

مما يتداخل معه من قريب أو بعيد، فإن أحكامه سوف تضطرب أو تحيد عن الصواب، وقد يتشعب البحث أو يطول، وقد لا يتمكن من الفصل فيه، فمثلاً إذا كان موضوع التفكير الزكاة فإنها تتصل من قريب بالصدقة والهبة والهدية، فالكل يشترك في كونه عطاء بدون مقابل، وفي كل ثواب وأجر ومع ذلك فلكل واحدة منها شروطها وضوابطها وحدودها.

وإذا كان موضوع التفكير إحدى القضايا الكبرى، كالعقيدة مثلاً، فإن موضوع التفكير يحتاج إلى تحديد دقيق، ليتم التوصل إلى الغرض بسهولة، ذلك أن قضايا العقيدة ذات جوانب متعددة.

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد حدد موضوع التفكير في محاجته للنمرود، فحصر موضوع التفكير في قضية الربوبية، كما حدد موضوع التفكير أثناء مناظرته لقومه أيضاً[1].

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

«إن هذا الملك لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً إنما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أنداداً ينسبون إليها فاعلية وعملاً في حياتهم وكذلك كان منكراً أن الحاكمية لله وحده، فلا حكم إلا حكمه في

---

(١) انظر القرآن وعلم النفس (صـ ١٢٤ : ١٣١) د/ محمد عثمان نجاتي دار الشروق.

(٢) سورة البقرة آية: (٢٥٨).

شؤون الأرض وشريعة المجتمع»[1].

جمع الفروض المناسبة:

بعد تحديد موضوع التفكير وبيان معالمه وأهدافه، يتجه الفرد المفكر إلى خوض معترك المعالجة الحقيقية للموضوع، فيأخذ في جمع سائر المعلومات القديمة ـ المعروفة لديه ـ ذات الصلة بمسألة التفكير، ويبدأ في فرض الإحتمالات المناسبة، ثم يقوم بفحصها لمعرفة مدى ملاءمتها، فيبقي ما يكون ملائماً ويطرح غيره.

إن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه لتؤكد أهمية العقل في الهداية إلى أصول الدين واليقين بجميع مسائل العقيدة، بواسطة التفكير والنظر المتكرر في النفس والحياة والأحياء والكون الفسيح الذي يحيط به، ولن يطول به الأمد حتى يقول مع المؤمنين. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

تمييز الفروض:

التمييز بين الفروض من أهم مراحل التفكير وأخطرها، ولهذا ينبغي على المراهق الناظر المفكر الباحث عن الحقيقة، حديث العهد بهذا المركب الصعب، والمرتقى الوعر، أن يتجرد من عواطفه وميوله ودوافعه كي لا يكون لها تأثير مباشر على مسيرة العقل وهو يباشر عمليات التفكير، كي لا تتأثر النتائج التي يأمل التوصل إليها.

لقد بين القرآن طرقاً عديدةً للتفكير السليم توصله للإهتداء إلى الحق الذي لا ريب فيه، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يناظر قومه ليثبت لهم فساد اعتقادهم وعبادتهم للأصنام والأوثان من دون الله، قد

---

(١) في ظلال القرآن (جـ ١ صـ ٢٩١).
(٢) سورة آل عمران بعض آية: (١٩١).

طرح عاطفته الدينية ومبدأ اعتقاده، فبدا كأن لم يكن لشيء من ذلك أثر في السلوك الفكري أثناء المناظرة بل إنه غالب عاطفته الدينية ويقينه الإعتقادي ليجذب إليه الخصم المناظر، لكي لا ينفر منه، يظهر ذلك في قوله عند رؤية الكوكب حين لمعانه، هذا ربي، ليكسر أو ليقلل حدة معاندة الخصم تمهيداً وتعويداً له على أسس التفكير السليم، لعله يهدي إلى الحق الثابت[1].

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ﴾[2].

كان هذا النظر والرؤية بمثابة الفرض الأول في سلم التفكير، وقد استبعده بعد أفول الكوكب، ثم انتقل إلى الفرض الثاني، وقد استبعده كسالفه، وانتقل منه إلى الشمس حتى أفولها، وكانت الفرض الأخير فلما أفلت استدل على أن أمر كل واحد من الفروض الثلاثة، زعم باطل ما نسبه قومه إليه، وأن كلا منها لا يمكن اعتباره حلاً لقضية اعتقاده فقرر اعتقاده الصحيح وما يطمئن إليه قلبه.

---

(١) «وحين يضع المفكر فرضاً لمشكلة ما فإنه يقوم عادة بتمحيص هذا الفرض ومناقشته على ضوء ماليه من معلومات وبيانات للتأكد من ملاءمته ومن صلاحيته لحل المشكلة، وقد يجد المفكر أن الفرض الذي وضعه لا يتفق ولا يتلاءم مع بعض ما لديه من معلومات وحقائق عن موضوع المشكلة. ثم يقوم بوضع فرض آخر، ويقوم بتمحيصه ومناقشته كما فعل بالفرض الأول، وقد ينهي الأمر إلى استبعاده، وتتكرر هذه العملية حتى يصل أخيراً إلى فرض مقبول وملائم لما لديه من معلومات وحقائق عن موضوع المشكلة، ويرى أنه صالح لحل المشكلة» القرآن وعلم النفس (صـ ١٢٩) د/ محمد عثمان نجاتي.

(٢) سورة الأنعام الآيات: (٧٥: ٧٦).

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلما أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـقَـوْمِ إِنِّي بَرِيٌ مِمَا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَـطَرَ السَّمـاوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفـاً وَمَـا أَنَـا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَـدْ هَدَانِي وَلَا أَخَـافُ مَـا تُشْرِكُـونَ بِهِ إِلَا أَنْ يَشَـاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَ شَيءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

«بمثل هذه الفطرة السلمية، وهذه البصيرة المفتوحة، وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة، نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك... ملك السموات والأرض»[2].

إن الإسلام يحرص على الدعوة للنظر العقلي والتفكير المستقل كطريق لليقين بأصول الدين وشرائعه وعباداته ومبادئه التربوية والأخلاقية، وهو لهذا لا يحفل كثيراً بالإيمان التقليدي الموروث عن الآباء والأجداد إلا أن يكون سلماً لما بعده، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً.

إن المراهقة مرحلة ميلاد جديد للإدراك العقلي، بمعنى أنه يبرز بشكله النمائي في صورة جديدة لم تعرف عنه من قبل، ويؤكد هذا أن التكليف بالأحكام الشرعية والعبادات في الإسلام يبدأ من حين البلوغ، بظهور علاماته، أو بلوغ المراهق الخامسة عشرة من عمره، وهذا مقرر في كتب الفقه جميعها.

---

(١) سورة الأنعام الآيات: (٧٦: ٧٨).

(٢) في ظلال القرآن (جـ ٢ صـ ١٣٨) دار العلم ـ جدة.

إن المراهق في هذه الفترة النمائية يستطيع الاستقلال في التفكير، كما يمكنه إدراك الكثير من حقائق الأشياء ولا يمنعه من ذلك كفر أسرته أو فساد اعتقاد بيئته الإجتماعية، ذلك أن المعتقدات الباطلة والإتجاهات الضالة إذا ما عرضت على العقل الناضج رفضها أو على الأقل تشكك في صحتها، والشك في حد ذاته يسترعي إعاده النظر وإعمال العقل بمستوى أبعد في التفكير المجرد، والله سبحانه وتعالى قد بين في القرآن الكريم أن الكون المنظور هو مجال النظر وإعمال الفكر، ويسمح للناظر مراهقاً وشاباً ورجلاً تكرار النظر وإعمال الفكر في آيات الله المبثوثة في الكون الفسيح.

ومما يؤكد قدرة المراهق على التفكير المستقل كعامل مساعد على الهداية واليقين، بما أنزله الله سبحانه على رسوله هداية وتربية، أن هذه المرحلة في ظني هي مرحلة الإقرار الفعلي بالميثاق الذي أخذه الله سبحانه على جميع ذرية آدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾[1].

«أشهد كل واحد من أولئك الذرية المأخوذين من ظهور آبائهم على أنفسهم لا على غيرهم تقريراً لهم بربوبيته سبحانه وتعالى التامة قائلاً لهم: (**ألست بربكم**) أي مالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شئونكم (**قالوا بلى شهدنا**) أي على أنفسنا بأنك ربنا لا رب لنا غيرك. . . ومن هنا قال الجلال السيوطي:

---

(١) سوره الأعراف الآيات: (١٧٢: ١٧٤).

«إن هذه الآية أصل في الإقرار»[1].

ولعل هذا هو السر في أن البلاد الكافرة التي تعبد آلهة مزعومة من دون الله سبحانه، كاليهود والنصارى والملاحدة والوثنيين والمجوس وغيرهم، يعانون من أبناء هذه المرحلة النمائية، ذلك أن معتقداتهم الباطلة تصطدم بالعقل في مرحلة النضج العقلي، فينكرون على أهليهم قبول هذه المعتقدات أو يشكون فيها أو يترددون في قبولها وهذه المواقف راجعة إلى مستوى النضج العقلي للمراهق.

إن نضوح العقل وقدرته على التفكير المستقل والإدراك والتذكر والتخيل يعتبر من أهم ما تمتاز به مرحلة المراهقة، والله سبحانه قد أمد الإنسان بمواهب كثيرة لاستخدامها والإفادة منها في دعم إيمانه ويقينه، ولتمكينه من الترقي في العلوم والمعارف[2] والقيام بوظائف الخلافة في الأرض، فالعقل الناضج دعامة أساسية تعين المراهق على فهم دينه وتزكية روحه وتهذيب سلوكه، كما تعينه على تحقيق مستوى أفضل من التكيف مع بيئته الإجتماعية، حيث تبدأ مسئوليته عن أعماله وأقواله مع بداية هذه المرحلة النمائية، ونضوج العقل يؤكد أهلية المراهق للمسئولية الشخصية عن كل ما يأتي وما يدع، كما يكون إيذاناً برفع الوضاية المباشرة عنه، ويغد مسئولاً عن هداية نفسه وتزكيتها.

---

(١) روح المعاني (جـ ٩ صـ ١٠١).

(٢) «يتميز النضج العقلي في هذه المرحلة بالقدرة على فهم المعايير الخلقية.. والمفاهيم اللفظية المجردة والتفكير المنطقي والإبتكاري والواقعي لحل المشكلات المعقدة، كما تزداد قدرته التحصيلية والثقافية نتيجة لإحاطته بالكثير من مصادر المعرفة المتزايدة».

الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية (صـ ١٦٩) تأليف: ليلى عبد الرشيد عطار طـ أولى ـ جدة.

ولقد حدد القرآن الكريم المجالات التي يخوض فيها كي لا يضل ولا يشقى، حدد له الكون المنظور سماواته وأرضه وما فيها من كائنات تسبح بحمد الله، وحثه على التأمل في ظاهرها والتفكر فيما تحويه من حقائق وأسرار تشهد بوحدانية الله عز وجل وربوبيته.

إن تحديد القرآن الكريم لمجالات النظر وموضوعات التفكير ليدل صراحة على عجز العقل عن الإنفراد بالهداية، ما لم يستضيء بنور الوحي ليهديه إلى سبيل ربه، هذه السبيل التي حاول جميع الفلاسفة الوصول، إليها بواسطة العقل وحده فلم يصل منهم أحد، وتفرقت بهم السبل، ولم ينتج عن تفكيرهم إلا مفاسد وضلالات.

إن العقل أداة للفهم والتمييز بين الحق والباطل والعدل والظلم والخير والشر لكنه لا يقدر على تقرير أي شيء منها، ذلك أن إدراك الحق المطلق والعدل المطلق والخير مرد ذلك كله إلى الله عز وجل، فكثيراً ما يعتقد الإنسان في شيء أنه خير له ثم يبين له بعد ذلك أن لا خير فيه، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالحق والعدل ما شرع الله تعالى لعباده، فإذا ما توفر للإنسان عقل سليم وطبع مستقيم علم أن الخير فيما أمر الله به فلزم طاعته وهجر معصيته[2].

---

(١) سورة البقرة آية: (٢١٦).

(٢) «أن الله ـ سبحانه ـ قد وهب الإنسان العقل. والعقل أداة التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، كما أنه سبحانه ـ وهب الإنسان حب الإستطلاع وكشف الحقائق فمسؤولية الفرد واضحة، ألا وهي استعمال العقل من أجل عمل الخير واختيار الصالح وتجنب الشر. فالله ـ سبحانه ـ يقول: «إنا هديناه السبيل أما شاكراً وإما كفوراً» (الإنسان ـ٣) ويقول أيضاً: «وهديناه النجدين (البلد ١٠) فالذي يحظى بالهداية يكون شاكراً لا كفوراً. ومن النجدين يختار =

إحتفى الإسلام بالعقل احتفاء، وهيء له أسباب النمو والترقي، وجعله مناط التكليف بالأحكام الشرعية، وحث على إعماله في القضايا والتفكير في عواقب الأمور، وحذر من إهماله أو تعطيله بالخضوع للتقاليد الضالة التي عكف عليها الأولون أو باتباع الهوى، أو باصدار الأحكام الفجائية، إلى غير ذلك مما يعتبره الإسلام تعطيلاً للعقل وتعويقاً لإنطلاق مسيرته وإهداراً لطاقاته، ولعل احتفاء الإسلام بالعقل بهذا المستوى الذي لم تعهده البشرية من قبل، قد حدى بنفر من المفكرين أن يدعو للعقل ما ليس له فيجعلونه حاكماً لا محكوماً بالشرع.

لقد جاء على لسان الدكتور/ محمد أمين المصري مجموعة من العبارات التي لا يقبلها منهج القرآن الكريم في تقويم العقل الإنساني، ولا تحتملها آياته، وفيما يلي أثبت بعض هذه العبارات.

«لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الإعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل، فالإسلام يحث على النظر، ويتطلب المعرفة كما يتطلب الإيمان، أو يتطلب الإيمان عن معرفة، ويهدف نحو تربية ملكة النظر، كما يهدف نحو تربية الطاعة، وتقويم الوجدان، غير أنه لا يهدف نحو تربية الطاعة العمياء والخضوع الآلي الذي يجعل الإنسان يتحرك كما تتحرك الآلة، أو كما تتحرك الأنعام من غير وعي وتدبر، ولكنه

= طريق الخير والصلاح. وواجب المربي واضح وهو مساعدة الطالب على الإهتداء بهدى العقل السليم والمحاكمة الرزينة مع حب الإستطلاع وتحري الحقيقة دوماً والوصول إلى المعرفة الصحيحة واستعمالها في سبيل الخير» نحو تربية مؤمنة (صـ ٤٣) د/ محمد فاضل الجمالي ـ الشركة التونسية للتوزيع.

يحاول النهوض بالعقل الإنساني والإسلام دين عقلي، لأنه قد راعى قوانين العقل في كل ما أتى به من شرائع وعقائد، ثم تحاكم إليه فيها، وقبل فيه سلطانه، فقضاياه، وأحكامه وتكاليفه وأوامره، ونواهيه، وكل ما جاء به، معقولة كلها وموجهة للعقل ومعروضة عليه لينظر فيها ويقبلها، حين يقبلها عن بينة وإختيار، وذلك لأنه مطمئن إلى صحةكل ما فيه من شرائع وعقائد، وواثق بأنه ليس ما يأباه العقل، أو يستعصي على الفهم ويتعالى عن الإدراك.

«لم يمتحنا بما تعيا العقول به» بل هو واضح المعالم بين الحجة، ظاهر الحكمة. وليس على المرء إلا أن ينظر فيه بتدبير وإمعان مجرداً عن الهوى والتعصب وعن كل الأفكار المغرضة ليرى كيف أنه يتفق وقوانين العقل الخالص، ويخضع للمنطق العام والسنن العامة[1].

إن قول الكاتب «إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل «هذه المقولة ظاهرة الفساد، وذلك أن العقل عند جميع البشر محدود الإدراك بطبيعة خلقه، وأن الإسلام وكتابه القرآن، كلام الله خالق الأكوان وبارؤها، فهو سبحانه أعلم بما يصلحها ويصلح لها.

وأنّا ندرك كثيراً من الأشياء ونعقل كثيراً من المسائل والقضايا، ومالا ندركه أو نعقله مما يحيط بنا أكثر، وما لا ندركه لا يعني أنه غير موجود، أو أنه غير جدير بالعقل، فإنا لا ندرك كيفية عقلنا لما نعقله منها، فكل ما ندركه من عمل العقل هو الجانب الظاهر منه، ـ بمعنى احساسنا بما انتهى إليه إدراكنا وتعقلنا لهذه الموضوعات والقضايا ـ فهل يعقل بعد ذلك أن يؤخذ بما دل عليه العقل وودع ما تعارض

---

(١) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها (صـ ١٢٥ : ١٢٦) د/ محمد أمين المصري دار الفكر.

معه من النقل، وهذا أمر أول.

وأما الأمر الثاني فإنه يتلخص في إقرار الكاتب وإذعانه بصحة جميع ما جاء به الإسلام من عقائد وشرائع، وأن ليس فيه ما يأباه العقل، أو يستعصى على الفهم ويتعالى عن الإدراك، وقوله هذا، يعكر على الأول، كما يلزم بضده.

وعليه فإن حدث تعارض بين النقل والعقل، دل ذلك على علة قائمة بالعقل كائنة بذاته أو بإعتبار ما آل إليه أمره أو بمنهجه وإتجاهه أو بهما معاً.

لقد هدى القرآن الكريم إلى كثير من الأمراض التي تعترض للعقل في رحلته مع الحياة، فكان منها أمراض تتعلق بذاته. كالطبع، والطمس، والران، والختم، وهي أمراض مهلكة تعيب العقل المخالف للشرع، فيركب متن الضلال، فلا ينتج عن فكره وتفكيره إلا ضلال مبين.

وهي أمراض تصيب الكافرين والمنافقين جميعاً.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»[1].

لقد سلب الله سبحانه وتعالى عنهم وسائل الهداية والعلم، فلم تعد قادرة على التجاوب مع الوجود كله المتجه إلى ربه، وقد استحقوا ذلك بكفرهم.

---

(١) سورة البقرة الآية: (٦: ٨).

والختم يعني الطبع على القلب فلم يعد يفهم شيئاً.

«الختم والتغشية مسببان عن نفس الكفر، واقتراف المعاصي سببان للإستمرار على عدم الإيمان أو الإستواء الإنذار وعدمه... والختم الوسم بطابع ونحوه... الخ»[1].

ومن الأمراض ما يعود إلى المنهج والإتجاه والهوى ولا يمكن الفصل التام بين جميعها لما بينها من علاقة اتصال، ومثال الأول. التعريف بجميع أنواعه بكتمان بعض المنزّل تارة وتحريف معناه أخرى إلى غير ذلك من ألوان التحريف. فأيهما الجدير بالإتباع والإنتهاء إليه عند التعارض.

القرآن الكريم المنزل من لدن حكيم حميد، أم العقل الكائن الذي يتعرض لكثير من الأمراض المهلكة، وهو الذي لا يعقل ذاته، بل لا يعقل كيف يعقل، العقل الذي إذا استبد به الزيغ والضلال زين لصاحبه سوء عمله فرآه حسناً، وهذه إشارة إلى بعض الحالات المرضية التي تعرض للعقل.

إن صاحب العقل السليم لا يتجاوز به حدود طاقاته واستعداداته والمجالات التي تقع تحت مدركاته في الكون المنظور وما بثّ الله فيه من آيات، فأما ما عدا ذلك من علوم الغيب فليست داخلة ضمن مدركات الإنسان، إنما هي واجبة التسليم بعد جولاته في الأنفس والآفاق[2].

---

(١) روح المعاني (جـ ١ صـ ١٣١).

(٢) «أن التدبر في ذلك كله يكشف عن عظمة الله وقدرته اللامتناهية، ويبين في الوقت نفسه ضآلة الإنسان أمام تلك العظمة والقدرة الخارقة، إلا أن البحث في إدراك العلاقات بين الظواهر في هذا الكون يفيد الإنسان في حياته فيكشف الكثير من الأمور والإختراعات التي تستفيد منها الإنسانية، ولذلك دعا الله رسوله إلى أن يوجه أصحابه إلى البحث في أسرار هذا الكون وإدراك العلاقات=

وأما قوله بأن الإسلام قد راعى قوانين العقل في كل ما أتى به من عقائد وشرائع ثم تحاكم إليه فيها، وقبل فيها سلطانه.

فهذا القول ظاهر الفساد كسابقه، من يتحاكم إلى من!!

الإسلام وكتابه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أم العقل!!

وقد بينت طرفاً يسيراً من أحواله والأعراض المرضية التي تصيبه، بالإضافة إلى جهله ببعض ظواهر الأشياء، فضلاً عن دقائقها وأسرارها.

ثم لمن السلطان. أمام من.، أهو للعقل أم للقرآن الكريم؟!! ألا إنه لا سلطان للعقل في حضور النقل (الكتاب والسنة).

«جاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء وتعالى الله عن أن يستشير المخلوق وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب، وتعالى العليم الحكيم عن أن يحتكم إلى البشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية... والقرآن الكريم دين العقل بهذه المعاني فهو هاد للعقل: ومرشد له وقائد، وهو مبادىء يفهمها العقل في سهولة ويسر وهو لا يناقض العقل (السليم) وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما يأتي به»[1].

= بين ظواهره بروح علمية وأمانة ومسؤولية «وقل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» معجزة الإسلام التربوية (صـ ٩٢) د/ محمد أحمد السيد ـ دار البحوث العلمية الكويت ١٩٨٢.

(١) الإسلام والعقل (صـ ١٩) د/عبد الحليم محمد ـ دار الكتاب الحديثة.

التفكير الديني في المراهقة

إن القرآن الكريم منهاج حياة شامل، منهاج لتقويم العقل البشري ليعمل ولينطلق في حدوده التي تتناسب مع قدراته وإمكانياته واستعداداته، ويعوده على التفكير الصحيح الذي يضمن له سلامة العقل واستقامة الذهن، كما يفتح القرآن الكريم أمام المراهق مجالات كثيرة للتأمل والتفكر في نفسه وبني جنسه والكائنات من حوله، وبالجملة فإنه يفتح أمامه صفحة الوجود كله.

إن النضوج العقلي للمراهق في هذه المرحلة يدفعه إلى التفكير بجدية في العالم المحيط به ـ العالم المادي ـ العلاقات الأسرية ـ العلاقات الإجتماعية ـ العواطف والإتجاهات النفسية ـ بقصد التأكد من صحة معلوماته التي تعرف عليها في مراحل عمره السابقة، ويعتبر التفكير الديني في هذه المرحلة من أبرز أنواع التفكير الحادثة فيها، للسبب نفسه الذي أشرت إليه سابقاً، ألا وهو الإقرار العملي بالميثاق الذي أخذه الله على جميع الخلق وهم بظهر الغيب بأصلاب آبائهم.

إن تفكير المراهق يشمل مسائل الدين عامة، وإن أهم القضايا الدينية تلح على عقله وتتطلب تفسيراً هي قضايا التوحيد (**توحيد الألوهية والربوبية**) والغاية من خلق الإنسان وأصل نشأته والمراحل التي مر بها خلقه، وقضايا البعث والحشر والحساب والصراط والجنة

والنار والملائكة والجن وحكمة التشريعات والتكليف بالعبادات إلى غير ذلك من قضايا الدين والحياة، وهو يهدف من تفكيره إشباع حاجة العقل النامي بالإقتناع.

ولما كانت العقول متفاوتة في قدرتها على الفهم والإدراك والتفكير، فإن القرآن الكريم قد اشتمل على آيات كونية ونفسية وإجتماعية تتناسب مع قدرات كل طائفة من البشر حسب إستعداداتها وإمكانياتها العقلية والعلمية والثقافية وتجربتها الميدانية.

إن القرآن الكريم يعالج كل قضية من قضايا العقيدة بطرائق متعددة وأساليب متنوعة لتناسب كل المستويات العقلية، فمن يستعصي عليه الفهم في إحداها ـ لقصر عقله وسذاجة تفكيره ـ يستطيعه في أخرى، لذا نجد القرآن الكريم يعالج قضايا الألوهية والربوبية والبعث مجتمعين كما يعالج كل واحدة منها على حدة، وهكذا في جميع قضايا أصول الدين والقضايا الأخرى.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

تعالج الآية قضية الألوهية بدعوة الإنسان للإدراك البصري، وملاحظة حال السماء وما فيها من كواكب ونجوم، وملاحظة حال الأرض وما عليها من مخلوقات وما في باطنها من معادن وسوائل وغازات.

والأمر البارز المقصود بالملاحظة هو التناسق بين الكواكب والنجوم في حركتها ودورانها حول فلكها، والآية بحالها معروضة على العقل الإنساني بكل مستوياته. فالمتوسطون ومن دونهم يلاحظون

---

(١) سورة الأنبياء آية: (٢٢).

الحركة الظاهرة للكواكب والنجوم ومواقعها. وأما العلماء بجميع تخصصاتهم فإنهم لا يقفون عند مجرد هذه النظرة البدائية، بل الكل ينظر بحسب قدرته وبقدر حاجته وما يناسب تخصصه، ويستفيد بتجاربه السابقة أملاً في التوصل إلى نتائج جديدة، والجميع في النهاية يلتقون عند إقرار واحد، وهو وحدة القانون الذي يضبط حركة هذه الكائنات جميعها في تناسق بديع لا يتطرق إليه خلل وهذا يدل على أن مدبر هذه الكائنات إله واحد سبحانه وتعالى.

«... هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لاله واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات. ولتعددت النواميس تبعاً لها ـ فالإرادة مظهر الذات المريدة والناموس مظهر الإرادة النافذة ـ ولا انعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الإضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق... هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس»[1].

ويعالج القرآن الكريم القضية ذاتها بمظهر آخر في قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[2].

وتعالج الآيات القضية في المظهر الحاضر، مظهر القهر والتسبيح، فالسموات السبع والأرض ومن فيهن مقهورات لسلطانه تعالى، يسبحن بحمده تبارك وتعالى.

---

(١) في ظلال القرآن الكريم.

(٢) سورة الإسراء آية: (٤٢، ٤٤).

«لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا ـ أي الآلهة المزعومة ـ أي لطالبوا إلى ذي العرش ـ أي إلى الله سبيلاً ـ أي إلى مغالبته وإزالة ملكه لأنهم إذاً يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض. سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً».

يعالج القرآن الكريم مجموعة من القضايا مجموعة في آية أو آيات تجمع بينها وحدة موضوعية في مثل قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِن الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[1].

تعالج الآيات الكريمة السابقة مجموعة من القضايا التي يهتم بها المراهق إهتماماً كبيراً في هذه المرحلة، وهذه القضايا هي الألوهية والربوبية والبعث وأطوار خلق الإنسان ومراحل تكوينه في رحم أمه ومراحل حياته بعد الولادة وموته عند انقضاء أجله وقيام الساعة الذي لا ريب فيه، والآيات تناسب كل المستويات العقلية كل بحسب حاجته واستعداده.

إن الحمل والولادة والإرضاع والطفولة والشباب وامتداد العمر إلى الشيخوخة حالات متكررة شاهدها المراهق كثيراً في طفولته

---

(١) سورة الحج آية (٥: ٧).

وصباه، ولكنها لم تستوقفه وكأنها حالات مألوفة، لكنه بعد نضوج العقل، فإذا ما قرأ أو استمع إلى هذه الآيات ومثيلاتها، فإنه ينظرها بحس جديد، ونظر بعيد، يطالع من خلاله أسراراً لم يعهدها من قبل ويطالع فيما يطالع منها الأرض يابسة مجدبة ما فوقها من أغصان قد علاه الذبول، وينظر إليها بعد نزول الماء وقد تحركت التربة ونمت فانسابت جزئياتها في الشقوق التي أحدثها الجفاف، وإذا الحياة والنماء ينبعث في أرجائها من جديد فأورقت الأغصان وأزهرت.

ويطالع في الآية سراً من أسرار أمر الله سبحانه بامتثال الآداب الفاضلة مع الوالدين عند تقدم السن بهما ولين عظامهما وإنحناء ظهورهما، وقد فهم هذا الأمر فهماً ساذجاً بسيطاً يناسب طفولته، لكنه اليوم يطالع سراً جديداً لم يدركه من قبل، فيدرك أن هذا الجيل الذي قد أفنى حياته في رعاية أبنائه قد رد إلى مرحلة أشبه بحال الطفولة، وأصبح بحاجة ماسة إلى الشعور بالأمن والرحمة، يلحظ هذا وغيره، وكلما أعاد النظر تكشفت له الأسرار والدلائل على وحدانية الله تعالى وربوبيته وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها، ألا إنها تربية مزدوجة تربية للعقل، وتربية للإحساس بالغير، وتربية للضمير الأخلاقي وتهذيب سوي للسلوك، يجعل الإنسان يتعامل مع والديه وغيرهما معاملة تنم عن خلق كريم.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1].

تعالج الآية ثلاثاً من القضايا الكبرى في إيجاز وبيان ليس بعدهما إيجاز ولا بيان تعالج قضية الخلق من تراب الأرض، وقضية الموت بالعودة إلى تراب الأرض، وقضية البعث والخروج من تراب

---

(١) سورة طه آية: (٥٥).

الأرض، تعالج القضايا الثلاث بأسلوب يأخذ بقلوب الأدباء والحكماء والبلغاء.

«والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً، ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس، وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها، ومنها يبعث إلى الحياة الآخرة، كما خلق في النشأة الأولى»[1].

إن مرحلة المراهقة مرحلة عادية غاية ما تمتاز به عن المراحل السابقة لها نضوج العقل وقدرته على التفكير المستقل، وأما اهتمام المراهق بالتفكير في قضايا الدين فلا شوب عليه، فالمراهق قد تلقى بعض المفاهيم والعادات الدينية في مرحلتي الطفولة والصبا، ومارس آداء العبادات والشعائر حسب قدرته لكن تلقيه لها كان بطريق الإيحاء والتقليد، وهو الآن يريد أن يضيف إليهما إيماناً يستعين بالعقل في فهم قضايا الدين.

وهذا ما يجعلنا نرفض قبول الرأي القائل بتطور الشك الديني عند المراهق من العبادات إلى العقيدة ذاتها.

يقول صاحب كتاب الأسس النفسية مما يتصل بهذه القضية ما يلي:

«في هذه المرحلة تقل نسبة ممارسة الفرد للعبادات المختلفة لكنه ما يلبث أن يعود إلى عبادته عندما تمر به أزمة حادة قاسية وعندما تنتهي الأزمة تفتر صلابته، وتهدأ رغبته الشديدة في الصلاة والعبادات الأخرى.

---

(١) في ظلال القرآن (جـ ١ صـ ١٤٧).

يتقبل الطفل الإتجاهات الدينية في أسرته ومجتمعه، لكنه يشك فيها في أوائل مراهقته، وخاصة بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمره وذلك عندما يعجز عن إدراك الفلسفة الدينية العميقة، فيقف وعقله في نية اللانهائية الدينية ويقعده عجزه عن فهم الأبدية، ويحاول أن يخضع الملكوت لفكرته عن الزمن الموضوعي والذاتي ثم يتخفف بعد ذلك، من هذا الشك في أواخر مراهقته... وتدل أبحاث تول على أن السادسة عشرة من حياة المراهق تعتبر مرحلة تحول في سلوكه وإيمانه الديني ذلك لأن الثقة الدينية بين المراهقين ترتفع عندئذٍ إلى ما يقرب من ٦٠ ٪ وإلى ما يقرب من ٦٥ ٪ عند المراهقات، ولذا نسمي مرحلة المراهقة أحياناً بمرحلة اليقظة الدينية لأن الفرد يبدأ فيها جداله الديني الحاد العنيف، فيناقش فكرته عن الجنة والنار، والذنب والتوبة، والبعث والخلود، والقضاء والقدر، والحرية والفردية والجبرية اللاإختيارية.

هذا وتزداد ضراوة هذه اليقظة الدينية، وما يتبعها من إثارة المشكلات والشكوك المختلفة عندما يواجه المراهق أحداث الموت وهي تصيب أصدقاءه وأقرباءه وعندما يفطن لقوة الحياة، ومرارة الأحداث المحيطة به.

ويتطور الشك الديني عند المراهق من العبادات إلى العقيدة ذاتها، وهو في شكه هذا يراجع نفسه، ويراجع علاقته بالقيم السائدة والمعايير القائمة بالكون كله.

ثم تهدأ حدة الشك وذلك عندما يقترب الفرد من الرشد، فيتحول من الشك إلى الشعور بالذنب، ويتطور به النمو إلى معالجة مشكلاته الدينية بروح موضوعية»[1].

---

(١) الأسس النفسية للنمو من المهد إلى الشيخوخة (ص ٣٥) د/ فؤاد البهي السيد.

إن الإسلام يدعو إلى النظر العقلي كطريق لليقين، ومن ثم فهو لا يحفل كثيراً بالإيمان التقليدي إلا أن يكون سلماً لما بعده، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً، والله سبحانه قد بين مجال النظر وأعمال الفكر، فمجاله الكون المنظور كله ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[1].

ويسمح للناظر تكرار النظر وإعمال الفكر في آيات الله ونواميسه التي احتواها الكون المنظور ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[2].

إن النظر وإعمال الفكر في الآفاق، يقودان إلى الحق الثابت، ما أخلص الناظر وينتهيان به إلى الإقرار والإيمان.

وينبغي أن يعرف أن العبادات والعقيدة ليست من قبيل مسائل الحياة العادية التي يفسح فيها المجال للإدراك العقلي أن يبتكر ويستحدث، أو يضع الفروض المحتملة لأنواع هذه المسائل، أو يدلي بوجهة نظر فيهما.

إن العقيدة والعبادات خارجة عن مجال النظر وإعمال الفكر، فهي مسلمات يقينية يعود إليها الفرد مسلماً مذعناً، بعدما يقضي ما يشاء من جولات في الكون المنظور.

هذا ويذهب بعض علماء النفس إلى أن النضج العقلي في المراهقة لا يسمح بتقبل المواعظ والإرشادات القبول المطلق بدون تفكير، فهذا منهج الإسلام وهديه الذي ينفرد به، وما يتميز به عن سائر الأديان والمذاهب الباطلة.

---

(١) سورة يونس آية: (١٠١).

(٢) سورة الملك آية: (٦٧ ـ ٦٨).

ذلك أن التكاليف الشرعية مرتبطة بنضج العقل وسلامته، فلا تكليف على صبي ولا مجنون، والمكلف مأمور بالنظر والتفكر في نفسه وفي الكائنات من حوله، والقرآن الكريم يفتح أمام العقل صفحة الكون وسجله العتيد للنظر والتفكر السديد.

قال تعالى ﴿وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1] ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[2].

﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[3].

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ من يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وترى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

---

(١) سورة الذاريات آية: (٢٠، ٢١).
(٢) سورة الأعراف آية: (٥٤).
(٣) سورة الأنعام الآيتان: (١٠١، ١٠٣).
(٤) سورة الأنبياء آية: (٢٢).

الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِ شيءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[1].

وأود أن أنبه لأمر هام هو:

إن النتائج التي توصل إليها علماء النفس بواسطة الأبحاث والدراسة الميدانية التي أجريت على المراهقين في المجتمعات الغربية أياً كانت، يجب قصر هذه النتائج على هذه المجتمعات، فلكل مجتمع دينه وعاداته الإجتماعية وتقاليده، وعلى ذلك يكون تعميم هذه النتائج على المراهقين في جميع المجتمعات خطأ بيِّنٌ، ذلك أن المراهق في المجتمع المسلم يختلف عنه في المجتمعات الكافرة التي حرفت وبدلت وزادت ونقصت فيما أنزله الله لهم هداية وتربية، فالمراهق في هذه المجتمعات حين ينضج عقله ويقوى تفكيره وإدراكه لا يقنع بأصول ومبادىء الأديان والمذاهب المنتشرة في هذه المجتمعات بسبب التحريف الذي تعرضت له، وعبثاً يحاول المراهق فهم أصول الدين ومبادئه فيجد نفسه أمام كومة من المتناقضات التي يستحيل على العقل فهمها وتقبلها، بالإضافة إلى اللبس والغموض الذي تعرض به هذه الأصول، عندئذٍ يحدث الشك وتقع الرِّدة وتحاول الفطرة أن تحدث عن نفسها وليس لها بهذا التحديث من سبيل، فالعقل السليم لا يقنع بأصول الأديان المحرفة، وهو في أشد حالات السلامة لا يستقل بمعرفة الدين الصحيح، ما لم يهتد بنور الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم تصل إليه أيدي التحريف.

قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

---

(١) سورة الحج آية: (٧،٥).

إن المراهق المسلم في المجتمع المسلم يختلف عن المراهق غير المسلم في المجتمع المسلم وغير المسلم، ذلك أن المراهق المسلم يدين بدين فطري، جميع أصوله ومبادئه وآدابه ومثله تعرض في القرآن الكريم بالأسلوب الواضح، الذي لا لبس فيه ولا غموض، الذي يفهمه كل إنسان في سهولة ويسر.

إن التكاليف بالواجبات الشرعية تطلب على سبيل الوجوب من حين البلوغ، فقد غدا المراهق قادراً على الإستقلال بتحمل أمانة الفطرة ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

«هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده، بعد تلك الحوالات في ضمير الكون ومشاهده، وفي أغوار النفس وفطرتها، يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لإستقباله، كمأأن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن...

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ وبهذا يربط بين فطرة الناس البشرية وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله، وكلاهما موافق لناموس الوجود ـ والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الإنحراف والله أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، والفطرة ثابتة والدين ثابت ﴿لا تبديل لخلق الله﴾[2].

يجب أن يعرف أن تساؤلات المراهق المسلم عن جميع قضايا

---

(١) سورة الروم آية: (٣٠).

(٢) في ظلال القرآن الشهيد سيد قطب (جـ ٥ صـ ٢٧٦٧).

العقيدة والعبادات والشرائع وعن آثار كل ذلك في النفس والمجتمع أنها ليست من قبيل الشك أو التردد إنما محاولة جادة للتعمق في فهم قضايا العقيدة، والقرآن الكريم يحث على ذلك ويعين عليه.

ولم أجد حالة واحدة في المعاهد الدينية والمدارس الثانوية التي قمت بزيارتها لإجراء هذا الإستبيان، يصدق عليها ما يسمى بالشك الديني أو التردد في أحكامه، ولقد دارت بيني وبين كثير من المراهقين أحاديث طويلة استغرقت في بعض الأحيان ما يزيد عن الساعة، تحدث فيها المراهقون بكل حرية، فما وجدت منهم إلا شباباً محباً لدينه، غاية الأمر أنهم بحاجة لمن يفسح لهم صدره ويصغي لتساؤلاتهم ويحملها على محملها الصحيح، ويحسن الظن بهم، ويناقشهم في ود واحترام، وإن جادلهم جالدهم بالتي هي أحسن بلا تحامل ولا تقبيح، ولم أكتف بهذا فسألت بعض المدرسين القدامى والمحدثين وخاصة مدرسي التوحيد والتفسير في المعاهد الدينية عن موضوعات الأسئلة التي تردد على ألسنة المراهقين عند دراسة مسائل العقيدة وقضاياها الدقيقة فكل منهم أكد لي أن جميع التساؤلات تهدف إلى التعمق في فهم قضايا العقيدة ومعرفة الدليل.